تقليل النسل

بحث اجتماعي علمي

تناسل الفضل يُبدي للأُلى عقموا فضل التناسل عند البدو والحضرِ

قلنا هذا البيت من اعوام عديدة من قصيدة هنأنا بها احد اصدقائنا الافاضل يوم كنا نتغنى بقول شيخنا الاديب وشاعرنا العصري من ابيات ابيّات وحكم خالدات حيث قال

« فاذخر من صباك جسماً معافىً فالصبا والصفاء لا يخلدانِ
وتمتع بذات خدرٍ حليلٍ ناعماً بالرفاء والولدانِ
وحواليك من بنيك عيونٌ لا عيون المها ولا الغزلانِ
وخدودٌ اشهى واطرى واندى من دموع الصباح في نيسانِ
هذه لذة الحياة وهذي ايها الناس غبطة الانسانِ »

على انهُ مهما يكن من نتائج بحث الحياة العائلية نظرياً واختبارياً فلم يكن ليدور في خلدنا ان سيقوم من اهل هذا الاجتماع الحاضر من يدعو الى تقليل النسل وتعديل ذلك الناموس الفطري حتى يحسب ان استمرار انسان العصر الحديث على معدل سيره القديم من اكثار النسل مرهق لحياة الاجتماع مفضٍ الى هلاك سكان الارض شدةً وضيق عيش الى ان ينتاب ذلك الفناء الى ضدهِ من اليُسر والغناء . وبعدُ فقد كنا في هذه الايام نجيل الفكرة في اقوال لبعض علماء الاجتماع في هذا البحث الخطير . فلما قرأنا في احد اعداد المقتطف الاخيرة كلاماً في اخبارهم العلمية تتعلق بقلّة المواليد صحت منا العزيمة على مراجعة ما فكرنا فيهِ بما في الوسع والروية ومبادرتنا الى تلخيصهِ في هذه السطور

نظر بعض المفكرين في مصير هذا الاجتماع الى فيض النسل البشري فوق سطح المعمور المخضر بفضل التدابير الصحية وما نجم عنها من تناقص الوفيات ولاسيما في هذه العقود الاخيرة من السنين يحاذرون على المجتمع الحاضر والآتي سوء المغبّة من تزاحم الخلق وضيق موارد العيش وجعلوا يصدعون بوجوب تقليل النسل يباتين احكامهم على مبادىء علم الاقتصاد حتى قرأنا لبعضهم في شهيرة من مجلاّت العلم قولاً يصرّح فيهِ « بان انحطاط متوسط المواليد قد انقذ المدنية الحديثة من تفاقمها والارتباك بازمة اقتصادية » بل انهم لم يخشوا لومة لائم بان اطلقوا على هذا التقليل اسم « انتحار الجنس » وهم يتصدون بهذا الانتحار افتداء الكل بهلاك البعض

على انهُ لما كان تقليل النسل واقعاً بطبيعة الحال آخذاً في اتساع النطاق ولاسيما في ارقى الممالك حضارة واسماها عمراناً كالولايات المتحدة وكانت طبقات الناس جارية عليهِ لا طوعاً لنظريات العلماء بل بمقتضى ناموس طبيعي من نواميس هذا الاجتماع انقسم ارباب النظر في تقليل هذا التعليل فريقين الاول ينظر فيهِ من الوجه الطبيعي (البيولوجي) والثاني فلا يرى فيهِ اثراً من قصد العقلاء والآخر يذهب في تعليلهِ الى الوجه الاقتصادي المبني على القصد والعمد وهاك خلاصة اقوال الفريقين مشفوعة بما بدا لنا من التعقيب الاجتهادي

(١) ادلة البيولوجي

حصر البيولوجي ادلتهُ في اربعة (١) قلة ما تهيئهُ الحالة الاجتماعية الحاضرة من الحاجيات المقوّمة لصحة الابدان من الغذاء والكساء والايواء من باب التعويض عن القوى الزائلة في جهاد الحياة وان ما يستغرقهُ هذا الجهاد او يستهلكهُ من سائر القوى البدنية لا يبقى بعدهُ ما يقوى بهِ الجهاز المخصوص على الوفاء بوظيفتهِ لاخلاف النسل . (٢) ان ما تقتضيهِ حالة الزحام الاجتماعي الحاضر من جهاد الدماغ الدائم وتناولهِ الدم الحيي من سائر اقسام البدن وعيشهِ على نفقتها يسلب قواها ويتلف نسجها حتى تعجز عن القيام بما وُجدت لهُ . ويدلون على هذا بان الناس في حالة بداوتهم الاولى لم يكونوا يستعملون قوة العين بمقدار ما يستعملها اهل هذه المدنية ساعات الليل والنهار بالاعمال العقلية والبدنية على ما هو معلوم من امر اجهادها هذه الازمان فضعفت قوة البصر عما كانت فيهِ اسلاف عصور الانسان الاولى . قالوا وعلى ذلك يُقاس ضعف القوى المولدة . (٣) ان جهاد الحالة الاجتماعية الحالية اورث الجهاز غير الارادي ضعفاً يتطرق الى جهاز التوليد فعلى بذلك النسل لما بين الجهازين من الارتباط الحيوي المتلازم بحيث اذا اعترى الاول اختلال ما حيوي اتصل بالثاني — قالوا — ومعلوم ان الجهاز الاول مطرد العمل دقيق التوازن سريع التأثر وحالة هذا الاجتماع بما فيها من الجهدات المخلة قد ارهقتهُ اجهاداً الى حدّ بعيد فأوهنت ذاك الجهاز المخصوص . (٤) ان الحيوانات العليا اقلّ نسلاً من الدنيا ولذلك فأرقى الناس اقلّ نسلاً من ادناهم . وان الحيوانات الآبدة اذا صيدت ودُجنت قل نسلها ولذلك فالتغيرات الصناعية والاجتماعية لهذه الخمسين عاماً قد ادخلت على المجموع قلة النسل . (٥) ان الامراض الجنسية التي ترد في تقريرات الاطباء من دواعي هذه القلة فيدّعي اهل هذا المذهب ان المهاجرة الحديثة وما يتأتى عنها من مفاسد الازدحام وكثرة الاختلاط مع وفرة الغنى عند ارباب وسعة العيش وفراغ الوقت عند نسبة كبيرة من الناس كل ذلك من تاثيرات الاختلال الادبي وسائقات

الامراض الخبيثة . ثم ان قلة اجور العاملات ازاء مطالبهن العصرية من ملبس وزينة قد تسوق قليلات الادب الى مهاوي الهلاك فيقل الزواج وتكثر تلك الامراض فيقل النسل

(٢) رد الاقتصادي

مع تسليم الاقتصادي شيئاً بقوة هذه الادلة البيولوجية والطبية في شأن قلة النسل يرد على ما سبق (١) بانهُ اذا اراد البيولوجي ان الحالة الاجتماعية الحديثة من شأنها ان تضعف الصحة بحيث ينتج عنها قلة النسل يورد عليهِ ان الامر على العكس يقتضيهِ ناموس النشوء العام . فان هذا الناموس يدل في موضوع البحث على ان بقاء قوة الايلاد من اقوى خصائص الجنس الملازمة لبقاء النوع وارتقائهِ ومن اشهر المبادىء المعلومة عند علماء هذا الزمان . والاَّ فاذا صح ان القوة الحيوية في النوع البشري آخذة بالانحطاط لتقوض اقوى ركن من اركان النشوء الجنسي وارتقاء النوع البشري الثابت في تاريخ الانسان والمأمول بلوغهُ الحد المشتهى تدريجاً على تراخي العصور . (٢) اذا كان فرط اجهاد القوة البدنية يستأثر بأكثر الغذاء حتى يوهن الجهاز المخصوص فعلام نشاهد وفرة النسل حيث الغذاء والكساء والايواء على اضعف حال بين الفقراء . ولقد قال ادم سمث الاقتصادي الشهير في جملة اقوالهِ المأثورة ان المرأة — الهايلاندية — (نقابل الفلاحة او الجبلية في الشرق) تلد عشرين ولداً في احوال عديدة وان سكان اطراف البلاد من اهل الخشونة والشظف اكثر نسلاً من ذوي الرقة واخوان العفاء وابناء النعيم . واكثر ما نشاهد هذه الحال في بلادنا الشرقية حيث تضيق منازل الصعاليك وظيفة العيال بكثرة الاولاد كما تضيق بهِ الدنيا عن اسباب الرزق في ميدان الجهاد . (٣) لا يُسلَّم ان فرط استعمال الدماغ واستئثارهِ بأكثر الغذاء الضروري لسائر اقسام البدن يسبّبان قلة النسل وذلك (اولاً) لان اشتغال العقل وما ينتجهُ من النشاط ادعى الى الانشراح والسرور . وقد اثبت بعض اهل الاحصاء لعهد قريب « ان هذا العجز الجنسي لاسباب دماغية نادر الوقوع بل ليس لنا في ذلك ما يجوز ان يطلق عليهِ لفظ الدليل » . (ثانياً) من نتائج ما تمَّ من الاحصاء في هذا الشأن ان المتزوجات من الدارسات العاقلات والمشتغلات بالعقليات لسن اقلَّ نسلاً من غيرهن . ثم ان صحَّ قول البيولوجي في ذلك فلم لا تنحصر قلة النسل في اهل هذه الطبقة من ذوي الاشغال العقلية بل هي شاملة لجميع طبقات الخلق نوع عمل وحال معاش وبالجملة فان اعمال الجهاز العصبي لا يوجب ابطالهُ ولا يورث ضمور الاعضاء المخصوصة ونحولها في عدد يذكر من الناس.

وهنا يضيف الاقتصادي بان حجج الاطباء في هذا المقام مشوشة مبهمة وليس فيها تقارير ثابتة بالارقام . (٤) ان قياس التمثيل الذي اعتمد عليه البيولوجي من مقابلة الحيوانات العليا بالدنيا والمتوحشين بالمتمدنين قياس خادع بطبيعته فانهُ يؤخذ من المقابلة الصحيحة بين جرمانيا وفرنسا مثلاً وبين جرمانيا والهند وبين فرنسا ومستعمراتها في كندا او بين اقسام مختلفة من مملكة واحدة ان علة تلك القلة متأتية في غالب شأنها من جانب الارادة لا من تلك الاسباب البدنية والبيولوجية الثانوية في الرتبة والتأثير . فانهُ قد عرف ان تغيرات متوسط النسل في هذه المقابلات تابعة لتغيرات الاحوال الاقتصادية من نحو الخصب والجدب والنجاح التجاري او وقوف الاعمال مما يرد تعليلهُ الى الارادة المتعلقة بهذه الاحوال اكثر منهُ الى التغيرات الفسيولوجية . (٥) انهُ وان قرَّر بعض الاطباء بان الامراض الجنسية سبب العقم في الجنسين الى حدٍّ بعيد عدا العقم الحاصل بعد ولادة الولد الاول الا ان هذا التعديل او التقليل محصورٌ في الدائرة الطبية فلا يشمل كامل الاحصاء المتعلق باسباب العقم العامة الشاملة فلا حجة فيهِ على المطلوب بل ان العقم الناجم عن علل طبية ليس بحديث العهد فلا يدخل في قلة النسل المستفيضة في هذا العصر . (٦) لا دليل ايضاً على ان عجز الجهاز المخصوص المسبب عن الامراض الجنسية قد ازداد انتشاراً عن ذي قبل . وان الاحوال الحاضرة التي يدعى بانها تفسح المجال لهذه الامراض الجنسية لا تفوق الاحوال التي تزيد تبادل الثقة فتزيد اليسار والغنى . فان رقي المدنية الحاضرة اقتصادياً لا يلتئم مع زيادة الخيانة والتراخي في حفظ الآداب . (٧) لم يثبت ان الامراض الزهرية اكثر وجوداً في اماكن قلة النسل وان الفساد الجنسي في عموم حالاته بين الاكابر والاصاغر ليس بالامر الحديث . (٨) ان دواعي قلة الاجور لا تدل على زيادة الفجور بل ان الاستقلال الاقتصادي الذي بلغتهُ العاملات كان ادعى الى نماء روح العفاف وضبط الذات مما كان في سالف الايام

(٣) ادلة الاقتصادي الايجابية

على ان تقليل النسل واقعٌ بارادة الانسان

(اولاً) ان ازدياد النفقة على الدخل الضرورية لاعالة الولد الى زمن استقلاله المعاشي كافية للزهد بكثرة النسل ولما في تحمل هذا العبء الباهظ من ارهاق الابدان وازهاق النفوس حتى تسوق الكثيرين الى ارتكاب المحظورات من الانتحار وركوب الاخطار خصوصاً بعد ان طالت في هذا العصر اعوام اعداد الولد للاستقلال الذاتي الى حدٍّ بعيد

(ثانياً) ارتفاع قواسم المرأة على الزواج او حريتها الحديثة باختيارها نصيبها المعاشي بما اتسع لها من مجال الاعمال والاستقلال الذاتي طلباً للراحة مخلفة لا تأذن بها الحالة الزوجية مما يؤدي الى قلة النسل

(ثالثاً) ازدحام المدن وشدة نزاع الخلق على ادراك الرزق قد زهّدا الجم الغفير برباط الزواج والإقدام على مشاق العائلة وتجرّع ما فيها من غصص المسموم مع ما ازداد الى اليوم من تعرّض الاعمال الى اخطار التأخر والتقصير والانحطاط

(رابعاً) نماه روح الجمهورية واتساع مجال الارتقاء لعامة طبقات الناس وانفتاح ابواب الآمال لادراك المعالي بالاقدام والجد والكدح مما يشغل المتأخرين عن التقيد بقيود العيال — (على ما يدعون)

(خامساً) تأخير زمن الزواج من جانب الرجال الى ان يفوت زمن النتاج النسائي والنساء في هذه الحال إما ان يصرن صخّاً ويعرضن اصلاً عن الزواج او يتزوّجن بعد انقضاء شطر من اعوام النتاج ان لم يكن بعد فواته كلياً . وكلا الامرين مقلّل للنسل بلا اشكال وواقعٌ من جانب الارادة على كل حال

(سادساً) اتخاذ الوسائل المنعية لقلة النسل بعد الزواج وذلك يجري على عدة طرق (١) اسقاط الاجنّة المقصود — مع عدم خلو الحال من قتل الاطفال — (٢) بالاسباب الطبية المعروفة بالمانعات . ذلك انهُ لما كان في امكان الطب ان يزيل الموانع العارضة للاعضاء غير الارادية كان بالاحرى اقدر على ادخال موانع النتاج . ودليلهُ كثرة تصدّ الاطباء في طلب هذه (المانعات) واستعمالها على اختلاف في ذكاء المستعملات فان بعضهن يستعملنها بلطيف الاسلوب والآخر على وجه خشن ضارّ

ومما يسهّل استعمال هذه العلاجات المنعية ازدياد معارف الآنسات الفسيولوجية في المدارس مذ نحو ازيد بعين عاماً . فان ابنة العشرين اليوم اعرف بالتشريح والفسيولوجيا والهيجين من جدتها وهي في هذا العمر . فالمتزوّجات من بنات العصر اعلم بوسائل تقليل النسل من اخواتهن مذ ٢٠ سنة . قال احد المؤلفين « ان هذه الرغبة المنعية آخذة بالازدياد حتى في جرمانيا فانهُ شاهد عدداً كبيراً من النشرات الطبية « المنعية » تباع جهاراً نهاراً في حوانيت باعة الكتب دون حرج من قبل الحكومة وقد لا تزيد ثمن النشرة عن ثلاثة غروش »

ومن مؤيدات مذهب الاقتصادي ايضاً ان قلة النسل تشاهد حيث تكون قلة الوفيات

اي انهُ كما ان العناية الصحية تقلل الوفيات (بالارادة) كذلك تكون قلة المواليد بسبق النظر والقصد بمعنى انهُ حيث تقلُّ العناية الصحية بقلة الالتفات والاهتمام تكثر الوفيات والمواليد معاً

ومن الادلة على فعل الارادة في هذا الباب ما عُرف من تاريخ اوائل النازلين في الولايات المتحدة فان من كانوا يجاورن اطراف البلاد وهم على حال من الخشونة يدافعون بها السكان الاصليين كانوا اشد اقبالاً على الاكثار من العيال لما في الحالة العائلية من حياة التعاون حتى لقد كانت وفرة الاولاد لديهم من اعظم الآلاء واثمن ذخائر الاستقبال واقوى العدد على ايام الهرم والعجز ولكنهُ لما انقضت تلك الاحوال وزالت الدواعي واخذت المدن تغص بالسكان جعل الناس يشعرون بثقل اعباء الزواج المعلومة الحال . ولما فتحت ابواب الاستخدام في وجوه (المعائش) من الاماني اخذن في تأخير زمن الزواج فقلت العيال وتناقصت المواليد حتى اصبح ليومنا هذا كل من اقدم على الزواج الباكر وهو ليس بذي يسار ولا من اهل الاقدام والزحام معدوداً من قصار النظر وعادمي البصيرة وضعاف الحزم والعزم وضبط النفس . وبات على عكسهِ كل راجح العقل وبصير بالعواقب لا يقدم على التقيد باغلال الزواج الاَّ بعد اتباع المطامع وادراك الرغائب في ميدان الزحام حيث لا يُرجى من زواجهِ خصب النتاج . قال في هذا البحث احد كبار الكتَّاب « لا ريب ان حب الرفاه في الاجتماع الحاضر وقلة المواليد امران متلازمان لان حبَّ الرفاه معتمدٌ على فعل الارادة ومتى استقلَّ الرفاه عن فعل الارادة كما في حال الباشين والمجرمين ازداد متوسط المواليد . وعلى ذلك فليست قلة المواليد علة الرفاه كما يدعي بعضهم بل ان الرفاه هو علة قلة المواليد على العكس وكلاهما نتيجة لعلة واحدة وهي الارادة والبصيرة وانهُ اذا زال الميل الى الرفاه عادت المواليد الى ما كانت عليهِ في العصور السالفة » وخلاصة ادلة الاقتصادي كلها هي ان مذهبهُ في تعليل تقليل النسل موافق للحقائق الآتية

(١) ان اكثر الناس يتابعون في تقليل النسل الاحكام الفسيولوجية ولاسيما في هذا العصر

(٢) ان قلة النسل على نسبة متزايدة في كل مملكة راقية

(٣) ان النساء اليوم يؤخرن زمن الزواج عمداً في هذه الايام اكثر من سابق الازمان

(٤) ان عجز التوليد حاصلٌ من فعل العلاجات الصحية بدليل ان حديثات الزواج اذا قصدن تقليل النسل قلَّ عندهنَّ بالفعل او حرمنهُ بتاتاً

(٥) ان حب الرفاه واطلاب الراحة وغلبة الجبن في البواعث الكبرى على ذلك التقليل عند فريق من الناس غير قليل ان لم نقل عند الاكثرين

هذا والمفكر الحكيم بعد الوقوف على ما مرَّ في شأن هذا التقليل لا يرتضي منهُ مجرد وقوعهِ وتحقيق تعليلهِ بل لا بدَّ ان يعرض لهُ فيهِ سؤالان خطيران استيفاء لبحث واتماماً للفائدة وهما : (١) ما هو مبلغ تقليل النسل من صحة الداعي اجتماعياً واقتصادياً وادبياً . (٢) هل من وسيلة يا ترى عند اساطين الحكمة يتلافى بها وبال هذا الشر عند من يحسبونهُ شراً

متري قندلفت

لورد اڤبري

وهو السر جون لبك

نعت المجلات العلمية والجرائد السياسية المالي الشهير والمصلح الكبير والعالم المحقق والسياسي المدقق لورد اڤبري المعروف باسم السر جون لبك توفي في الثامن والعشرين من شهر مايو الماضي عن ٧٢ سنة قضاها في خدمة العلم والعمران

الذين طالعوا المقتطف من اول نشأتهِ سنة ١٨٧٦ الى الآن رأوا فيهِ اسم السر جون لبك ثم لورد اڤبري مزاراً كثيرة كادم للعلوم الطبيعية والادبية صادق الخدمة دقيق البحث كثير التآليف . وقد لا يعلم كثيرون منهم انهُ لم يكن استاذاً من اساتذة العلم ولا كان البحث العلمي شغلهُ الذي انقطع لهُ بل كان مالياً مديراً لبنك كبير ورثهُ من ابيهِ ولهُ في الاشغال المالية شأن عظيم لا يقل عن شأنهِ في الاشغال العلمية ان لم يكن اعظم منهُ . وهو من رجال السياسة ايضاً خدم بلادهُ في مجلس النواب ثلاثين سنة ولهُ اليد الطولى في سن القوانين الآيلة الى راحة مستخدمي البنوك وكل العمال وفي اصلاح بعض الشؤون المالية . ولم يخرج من مجلس النواب الاَّ حينما لُقب بلورد اڤبري ونُظم في سلك الاشراف

كان ابوهُ السر جون ولم لبك رئيس بنك و برتس وليك وكان ايضاً من الكتَّاب الذين يشار اليهم في العلوم الرياضية والفلكية ولهُ كتاب في القمر وكتاب في اضطراب السيارات وكتاب في المد والجزر وكتاب في علم المرجحات ونحو ذلك من الكتب العلمية التي يستشهد بها حتى الآن ولذلك فالمترجم ورث العلم او المَيل اليهِ وراثة

ولد في الثلاثين من ابريل سنة ١٨٣٤ . وتلقى المبادئ العلمية في مدرسة خصوصية